[٣]

التوتر الطائفى تاريخيًا:

لماذا؟.. ومتى؟؟

هل يمكن لعاقل أن يتصور -أو حتى يحلم- بخلو الحياة من «التوتر»؟..

إن المثل الشعبى يقول: «المصارين فى البطن بتتخانق»!.. فحتى فى أحشاء الفرد الواحد، لا مفر من التوتر والتناقض والتدافع.. وأحيانًا الصراع.. فما بالنا إذا كان الحديث عن أمة -مثل الأمة الإسلامية- قرر دينها- الذى مثل المكون الأول لحضارتها وثقافتها وسياسة دولتها ومنظومة قيمها -أنه ﴿لا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]- وأن الأصل والقاعدة والقانون والسنة الإلهية التى لا تبديل لها ولا تحويل هى التعددية والتمايز والتنوع والاختلاف، فى الشعوب والقبائل.. وفى الألسنة واللغات -ومن ثَمَّ القوميات- وفى الشرائع والملل والديانات.. وفى المناهج -أى الثقافات والحضارات- فالناس لا يزالون مختلفين، لأن سعيهم شتى، ولكل منهم وجهة هو موليها.. فى أمة -كالأمة الإسلامية- اعتمدت ثقافتها التعددية، ومن ثَمَّ تميزت حضارتها ومجتمعاتها -عبر تاريخها الطويل- بإفساح ميادين الحرية أمام كل العقائد والمذاهب، حتى لقد جعلت تمكين غير المسلمين من حرية

الاعتقاد والإعلان عن هذا الاعتقاد -الرافض للإسلام والكافر به والمنكر لأسسه وأركانه والجاحد لمميزاته -والممارسة لشعائر هذا الاعتقاد- فردياً ومؤسسياً-.. جعلت هذه الثقافة والحضارة الإسلامية من الاعتراف بهذا التنوع والاختلاف والحفاظ على وجوده والتمكين لمقتضياته جزءاً من الإيمان الإسلامى، لا يكتمل بدونه هذا الإيمان.. فى حضارة كهذه، وشعوب أمة كهذه الأمة، عاشت فيها أقدم الكنائس وأعرقها، وكل الديانات السماوية والوضعية، من لهم كتاب ومن لهم شبهة كتاب.. هل يتصور عاقل -أو حتى يحلم حالم- أن تخلو حياتها، فى أوطانها المتعددة، وشعوبها المتنوعة، وتاريخها الطويل، من التوترات الطائفية والدينية، أو المنازعات القومية والاجتماعية؟!..

إن نفى التوترات والمنازعات، فى مجتمع متعدد الديانات والمذاهب والمصالح، هو حلم مستحيل التحقيق.. بل هو حلم بالسكون والموات، لا علاقة له بمجتمعات وواقع الحياة والأحياء..

لذلك، كان الواجب هو البحث عن أسباب «التوتر» الطائفى، لتخفيض درجة حرارتها وحدتها، والابتعاد بها عن درجة «الصراع» المدمر لسفينة الوطن -التى تجمع وتقل الجميع- والوقوف بهذه التمايزات والاختلافات عند إطار «التنافس والتسابق والحراك» الذى يولد الحيوية الاجتماعية والفكرية، فى إطار وحدة السفينة -الوطن- وإقلاعها المتوازن وسط الأعاصير والمخاطر والأنواء..

وإذا كان الوعى بالتاريخ -الذى شهد العديد من هذه التوترات الطائفية -هو المدرسة التى نتعلم فيها ومنها الأسباب الحقيقية لهذه التوترات.. والطريقة المثلى لمعالجة حدتها، والابتعاد بها عن الصراعات المدمرة.. فإن مهمة هذه الدراسة هى **الوعى بأسباب التوترات الطائفية فى تاريخ مصر على وجه الخصوص -والمجتمعات الإسلامية بوجه عام-..** ولما كانت لحظات التوتر تشيع فيها الشكوك حول مقاصد الذين يستدعون دروس ووقائع التاريخ، بسبب «التصنيف» للهويات الدينية لهؤلاء الباحثين.. فستعمد هذه الدراسة إلى المصادر غير الإسلامية والرؤى المسيحية -تحديداً- فى تحليل أسباب هذه التوترات.. فوقائع تاريخ هذه التوترات الطائفية قد سجلها مؤرخو تلك العصور -وسنعمد لأوثق مصادر ذلك التاريخ-.. أما تحليل أسباب تلك التوترات، فسنحتكم فيها إلى مصادر غير مسلمة، كى لا تكون هناك أية شبهة للتحيز للإسلام والمسلمين فى ذلك التحليل!..

وشهد شهود من أهلها:

فى الشهادة على أن التاريخ الإسلامى للمجتمعات الإسلامية -وليس فقط الدين الإسلامى- قد حقق أعلى المستويات الممكنة للبشر فى التنوع والتسامح، على النحو الذى جعل من بقاء واستمرارية التعددية الدينية فى هذه المجتمعات شاهد صدق على هذا التسامح، لا توازيه أو تدانيه أية شهادات فكرية.. فى الشهادة على هذه الحقيقة الاجتماعية والتاريخية يقول مستشرق إنجليزى، شديد التدين

بالنصرانيـة، وحجة فى عالم الاسـتشراق- هو «سيـر توماس أرنولد» (١٨٦٤- ١٩٣٠)-:

«إنه من الحق أن نقول: إن غيـر المسلمين قد نعموا -بوجـه الإجمال- فى ظل الحكم الإسـلامى، بدرجة من التسـامح لا نجد مـعادلا لها فـى أوربا قبل الأزمنة الحديثـة. وإن دوام الطوائف المسيحيـة فى وسط إسلامى يدل على أن الاضطهـادات التى قـاست منهـا بين الحـين والآخـر على أيدى المتـزمـتـين والمتعـصبين كـانت من صنع الظروف المحلية، أكـثر مما كانت عـاقبة مبادئ التعصب وعدم التسامح..»[1].

فهذا المسـتشرق الإنجليزى الحجـة، المؤمن بالنصرانية إيمان عمـيقًا، يبرئ الإسلام من التعصب، ويشهد بتمتع غير المسلمين بتسامح دينى لم تعرفه أوربا قبـل العصر الحديث.. أى أن حاكـمية الإسـلام قد اقـترنت بالتسامح الدينى مع غـير المسلمين، بينما افتقـرت أوربا إلى هذا التسامح فى ظل حاكميـة النصرانية، ولم تعرف أوربا التسـامح إلا مع العلمانية، أى على أنقاض حاكمية النصرانية!!..

وإذا كان كتاب «أرنولد» -(الدعوة إلى الإسلام)- هو أوثق المصادر التى تتـبعت انتشـار الإسلام -بالحـجة والقدوة- فى كل الـبلاد التى دخلهـا الإسلام.. فلقـد قارن هذا المـستـشرق بين انتـشار الإسـلام بالسمـاحة وبين انتـشار النصرانيـة بالسيف -وخـاصة فى أوربا-..

(١) (الدعوة إلى الإسـلام) ص ٧٢٩، ٧٣٠ ترجمة: دكتـور حسن إبراهيم حسن، دكـتور عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوى. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م.

«فشارلمان (٧٤٢- ٨١٤م) فرض المسيحية فى السكسونيين بحد السيف.. وكذلك صنع الملك «كنوت» فى الدانمرك.. وجماعة إخوان السيف فى بروسيا.. والملك «أولاف ترايجفيسون» فى جنوب النرويج.. والأمير «فلاديمير» فى روسيا سنة ٩٨٨م.. والأسقف «دانيال بيتروفتش» فى الجبل الأسود.. والملك «شارل روبرت» فى المجر.. إلخ.. إلخ..» كل هؤلاء استأصلوا المخالفين للمسيحية، وقطعوا أيديهم وأرجلهم وذبحوهم أو نفوهم وشردوهم، بمجرد تدين هؤلاء الملوك والأمراء بالنصرانية![1]..

بل إن أوربا النصرانية قد ضاق صدرها حتى بالتعددية المذهبية فى إطار النصرانية.. فشهدت أكثر من عشرة حروب دينية بين المذاهب النصرانية، امتدت قرابة ثلاثة أرباع القرن (١٦٢٩ - ١٥٦٢م) -بين الكاثوليك والبروتستانت- ومن أشهرها حروب (١٥٦٢ - ١٥٦٣م) و(١٥٦٧ - ١٥٦٨م) و(١٥٦٩ - ١٥٧٠م) و(١٥٧٢ - ١٥٧٣م) و(١٥٧٤ - ١٥٧٦م) و(١٥٧٦ - ١٥٧٧م) و(١٥٨٠م) و(١٥٨٥ - ١٥٩٤م) و(١٥٨٦م) و(١٦٢١م) و(١٦٢٥ - ١٦٢٩م)[2].

---

(١) [الدعوة إلى الإسلام]. ص ٣٠، ٣٢، ٧٢، ٧٣، ١٢٢، ١٢٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٤١، ١٤٣، ١٥٤، ١٥٦، ٢٢٣، ٢٢٦، ٢٧٤، ٢٧٦.

(٢) بطرس البستانى (دائرة المعارف) مادة «الحروب الدينية» طبعة القاهرة -الأولى- ولقد أبيد فى هذه الحروب الدينية عشرة ملايين، أى ٤٠٪ من سكان وسط أوربا!!.. انظر: هاشم صالح -صحيفة «الشرق الأوسط»- لندن- فى ٢٦/ ٢/ ٢٠٠٠م.

أما هذه «الظروف المحلية»، التى قال «أرنولد» إنها المسئولة -وليس الإسلام- عن التوترات الطائفية العارضة التى عرفتها حياة الأقليات غير المسلمة فى المجتمعات الإسلامية -والتى قام بها المتزمتون والمتعصبون- فإن باحثًا نصرانيًا آخر- هو المؤرخ والمفكر اللبنانى «چورج قرم»- يرجعها إلى ثلاثة أسباب:

١- المزاج الشخصى المختل لبعض الحكام المسلمين -والذى عم خلله الأغلبية المسلمة والأقليات غير المسلمة.

٢- والظلم والاستعلاء والاستغلال الذى مارسته الزعامات والقيادات النصرانية، عندما تحولت -من خلال جهاز الدولة الذى كان فى قبضتها- إلى سوط عذاب يلهب ظهور الأغلبية المسلمة، الأمر الذى جلب على طوائفها غضب العامة وعنف الغوغاء والسفهاء..

٣- ووقوع هذه الطوائف النصرانية -أحيانًا- وخاصة المتدينة بمذاهب الكنائس الغربية- فى شراك الإغراء الاستعمارى، إبان الحملات الاستعمارية- الصليبية.. والترية.. والحديثة- على البلاد الإسلامية.. الأمر الذى جلب ردود الفعل على هذه الخيانات الوطنية، فعمت بلواها على الجميع!..

يرصد «چورج قرم» هذه الأسباب الثلاثة للتوتر الطائفى فى التاريخ الإسلامى، محملا المسئولية عن أغلبها لأبناء دينه، فيقول:

«ويلاحظ أن فترات التوتر أو الاضطهاد لغير المسلمين فى الحضارة الإسلامية كانت قصيرة، وكان يحكمها ثلاثة عوامل:

العامل الأول: هو مزاج الخلفاء الشخصى، فأخطر اضطهادين تعرض لهما الذميون وقعا فى عهد المتوكل، الخليفة الميال بطبعه إلى التعصب والقسوة. وفى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله، الذى غالى فى التصرف معهم بشدة.

العامل الثانى: هو تردى الأوضاع الاقتصادية الاجتماعية لسواد المسلمين، والظلم الذى يمارسه بعض الذميين المعتلين لمناصب إدارية عالية، فلا يعسر أن ندرك صلتهما المباشرة بالاضطهادات التى وقعت فى عدد من الأمصار.

أما العامل الثالث: فهو مرتبط بفترات التدخل الأجنبى فى البلدان الإسلامية، وقيام الحكام الأجانب بإغراء واستدراج الأقليات الدينية غير المسلمة إلى التعاون معهم ضد الأغلبية المسلمة.. إن الحكام الأجانب -بمن فيهم الإنجليز- لم يحجموا عن استخدام الأقلية القبطية فى أغلب الأحيان ليحكموا الشعب ويستنزفوه بالضرائب- وهذه ظاهرة نلاحظها فى سوريا أيضًا، حيث أظهرت أبحاث «جب» و«بولياك» كيف أن هيمنة أبناء الأقليات فى المجال الاقتصادى أدت إلى إثارة قلاقل دينية خطيرة بين النصارى والمسلمين فى دمشق سنة ١٨٦٠م، وبين الموارنة والدروز فى جبال لبنان ١٨٤٠م و١٨٦٠م. ونهاية الحملات الصليبية قد أعقبتها فى أماكن عديدة، أعمال ثأر وانتقام ضد الأقليات المسيحية -ولا سيما الأرمن- التى تعاونت مع الغازى.

بل إنه كثيراً ما كان موقف أبناء الأقليات أنفسهم من الحكم الإسلامى، حتى عندما كان يعاملهم بأكبر قدر من التسامح، سبباً فى نشوب قلاقل

طائفية، فعلاوة على غلو الموظفين الذميين فى الابتزاز، وفى مراعاتهم وتحيزهم، إلى حد الصفاقة أحيانًا، لأبناء دينهم، ما كان يندر أن تصدر منهم استفزازات طائفية بكل معنى الكلمة..»[1].

فأسباب التوتر الطائفى، فى الحضارة الإسلامية والتاريخ الاجتماعى الإسلامى -كما يستقرئها «چورج قرم»- هى:

المزاج الشخصى العنيف لحاكم من الحكام.. أو صلف وصفاقة واستعلاء واستغلال الوزراء والجباة النصارى لعامة الأغلبية الإسلامية الفقيرة.. أو وقوع قطاعات من الأقليات النصرانية فى شراك الخيانة الوطنية، التى نصبتها لها وأغرتها بها القوى الاستعمارية الغازية لديار المسلمين..

شهادة التاريخ على صدق التحليل:

وحتى يدرك القارئ المعاصر، أن هذا التحليل الذى قدمه «چورج قرم»، إنما هو ثمرة للاستقراء الأمين لمجمل مسيرة التاريخ الإسلامى، فإننا نقدم -من أوثق المصادر التاريخية- النماذج الشاهدة على عمق وصدق هذا التحليل..

- فالاضطهاد الذى أصاب غير المسلمين فى عصر المتوكل العباسى (٢٣٣- ٢٤٧هـ- ٨٤٧- ٨٦١م) لم يكن خاصاً بغير المسلمين، ذلك أن شذوذ هذا الحاكم قد عمم تعصبه ليشمل الكثير من تيارات الفكر

---

(١) (تعدد الأديان ونظم الحكم: دراسة سوسيولوجية وقانونية مقارنة) ص ٢١١- ٢٢٤ طبعة بيروت سنة ١٩٧٩م- والنص فى: دكتور سعد الدين إبراهيم (الملل والنحل والأعراق) ص ٧٢٩- ٧٣٠. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠م.

الإسلامى أيضًا.. فلقد اضطهد الشيعة، حتى هدم قبر الحسين ابن على بن أبى طالب -رضى الله عنهما- وحرث مكانه، وحوله إلى أرض زراعية!.. واضطهد المعتزلة، حتى لقد أسقط شهادتهم أمام القضاء، وحرمهم حقوقهم الاقتصادية والاجتماعية، ونفاهم إلى جزيرة «دهلك»- جنوبى البحر الأحمر-.. وهو منفى كان يضرب به المثل فى البعد وسوء المناخ، وفيه قال الشاعر عن حبيبته:

ولو أصبحت بنت القطامى دونها جبال بها الأكراد صم صخورها

لباشرت ثوب الخوف حتى أزورها بنفسى وإن كانت بأرض تزورها

ولو أصبحت خلف الثريا لزرتها بنفسى ولو كانت بدهلك دورها!

فلم يكن الاضطهاد -فى عصر المتوكل- وقفًا على غير المسلمين، ولا خاصاً بالنصارى..

- وكذلك كان الحال مع التوتر الطائفى والاضطهاد الدينى، الذى شهده عصر الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله (٣٧٥- ٤١١هـ- ٩٨٥- ١٠٢١م).. فلقد عم هذا الاضطهاد كل الشعب المصرى -الذى ظل على مذهبه السنى رغم حكم الدولة الشيعية الإسماعيلية الباطنية- فلقد أصدر الحاكم بأمر الله مراسيم اضطهاد أهل السنة، وسب كبار الصحابة- أبا بكر وعمر وعثمان وعائشة ومعاوية.. وغيرهم- سنة ٣٩٥هـ سنة ١٠٠٥م.. أى قبل اضطهاده للنصارى بخمس سنوات!.. بل وكتب سب الصحابة بالذهب والأصباغ على لوحات علقت على المساجد والمقابر والدور والحوانيت!!..

أما مراسيم اضطهاده للنصارى، وهدم عدد من كنائسهم سنة ٤٠٠هـ سنة ١٠٠٩م، فإنها نموذج لاجتماع عامل النزق الشخصى مع عامل رد الفعل على تجبر واستعلاء واستغلال زعماء النصارى إزاء الأغلبية المسلمة.. فالدولة الفاطمية كانت تتمذهب بالغلو الشيعى الباطنى، وتخالف عقيدة الشعب المصرى، ولذلك لجأت -كالاستعمار- للاستعانة فى جهاز الدولة وجباية الضرائب والخراج والمكوس إلى الأقليات، ليكونوا آليات القهر والاستغلال للشعب السنى.. فولى الوزارة فى عهد هذه الدولة -من النصارى- عيسى بن نسطورس.. وفهد بن إبراهيم -الذى كان يلقب بالرئيس-.. ومنصور بن عبدون -الذى كان يلقب بالكافى-.. وزرعة ابن نسطورس -الذى كان يلقب بالشافى-.. ووليها -من اليهود- منشا ابن إبراهيم القزاز.. ويعقوب بن كلس -الذى أسلم فيما بعد..

ومع سيطرة هؤلاء على جهاز الدولة، واستبدادهم بثروات الشعب، كان نفوذ زوجة الخليفة الفاطمى العزيز بالله (٣٤٤- ٣٨٦هـ- ٩٥٥- ٩٩٦م).. الذى تزوج من مسيحية ملكانية، تولى أخوها «أرسانيوس» بطريركية القاهرة سنة ٣٧٥هـ سنة ٩٨٥م، ثم بطريركية الإسكندرية سنة ٣٩٠هـ سنة ١٠٠٠م.. كما تولى أخوها الثانى بطريركية الملكانيين فى القدس سنة ٣٧٥هـ سنة ٩٨٥م.. وكان لهذه الزوجة، ولابنتها «ست الملك»، نفوذ طاغ على الخليفة، طبع المناخ الذى ولد فيه ونشأ الحاكم بأمر الله -ابن العزيز بالله- الأمر الذى جعل موقفه من النصارى رد فعل انقلابى على هذا النفوذ الطاغى الذى مارسه رؤساء النصارى ضد عامة المسلمين..

وحتى ندرك مقدمات الاحتقان الطائفى، الذى شحنت به أغلبية الشعب المسلم ضد استبداد الأقلية النصرانية واليهودية بثروات ومقدرات البلاد والعباد، يكفى أن نعلم أن هذه القضية قد أصبحت محور مقاومة الأمة للدولة، وغرضًا من أغراض نظم الشعر فى ذلك التاريخ..

لقد استخدم الشعب فن الصور والتماثيل فى مقاومة هذا الاستبداد الطائفى، فصنعوا تمثالا من ورق، لإنسان يمد يده للخليفة بعريضة فيها شكاية من الشكايات.. ونصبوا هذا التمثال -الذى بلغ، فى دقة المحاكاة، صورة الإنسان الحقيقى -نصبوه فى طريق الخليفة العزيز بالله.. فلما تناول الخليفة العريضة، إذا بها «منشور» قد كتب فيه: **«بالذى أعز اليهود بمنشا، والنصارى بعيسى بن نسطورس، وأذل المسلمين بك، إلا كشفت ظلامتى؟!!»**..

أما الشعراء، فلقد أفاضوا فى وصف هذا الاستبداد الطائفى.. فقال الحسن بن بشر الدمشقى:

تنصر فالتنصر دين حق ... عليه زماننا هذا يدل

وقل بثلاثة عزوا وجلوا ... وعطل ما سواهم فهو عطل

فيعقوب الوزير أب، وهذا ... العزيز ابن، وروح القدس فضل!

وقال الشاعر الخلال -فى السيطرة المالية للأقلية النصرانية- واستبدادها الإدارى:

إذا حكم النصارى فى الفروج ... وغالوا فى البغال وفى السروج

وذلت دولة الإســـــلام طـراً وصـار الأمـر فى أيدى العلوج

فـقل للأعـور الدجـال هذا زمانك إن عزمت على الخروج!..

أما نفوذ اليـهود، واستبداد وزرائهـم.. ففيه يقول الشـاعر المصرى الحسن بن خاقان:

يهـود هـذا الزمـان قـد بـلغـوا غـاية آمـــالهم وقـد مـلكوا

العـز فـيـهم والمال عنـدهمـو ومنهـم المسـتـشـــار والملك

يا أهل مصـر إنى نصحت لكم تهودوا، فـقد تهـود الفلك![1]

وحتى يدرك القارئ -ويطمئن قلبه وعـقله- أننا أمام حقائق تاريخية ومظالم اجتماعية فجـرت التوترات الطائفية الشهيرة فى تاريخنا.. وأن الأمر ليس مبالغـات شعراء.. يكفى أن يقرأ للمستـشرق الألمانى الحجة «آدم متـز» هذه العبارة الجامـعة التى قال فيـها: «**لقد كـان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام!!**[2]..

هذا عن دور العـامل الثانى -اسـتبداد الأقليـة بالأغلبيـة- فى إثارة التوترات الطائفية..

---

(١) المقريزى (اتعاظ الحنـفا بأخبار الأئمة الفـاطميين الخلفا) ص ٢٩٧، ٢٩٨ طبـعة القاهرة سنة ١٩٦٧م. و(الخطط) جـ٢ ص ١٢٣ طـبعـة دار التـحـرير -القـاهرة- وآدم مـتـز (الحضـارة الإسلاميـة فى القرن الرابع الهـجرى) جـ١ ص ١١٣، ١١٤، ١١٧، ١٨. ترجمة: دكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة. طبعة بيروت سنة ١٩٦٧م.

(٢) (الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى) جـ١ ص ١٠٥.

• أما العامل الثالث -فى أسباب التوترات الطائفية- الذى حدده «چورج قرم» -وهو موالاة الغزاة، إبان فترات اجتياح الاستعمار- التترى والصليبى والحديث- لبلاد الإسلام، فإن وقائع التاريخ -فى أوثق مصادره- شاهدة على أن التوترات الطائفية إنما جاءت رد فعل انتقامى لهذه الخيانات الوطنية، التى دفعت قلة من النصارى إلى الاحتماء بالأجنبى، فكان رد الفعل الذى غالبًا ما يعمم الانتقام -وفق قاعدة ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]..

• فعندما تحالف الصليبيون مع الوثنية التترية ضد الإسلام وأمته ووطنه ودولته، واستخدموا -فى إقامة هذا التحالف- الأقلية النصرانية النسطورية فى بلاد التتر، وإحدى زوجات الخان التترى -المسيحية النسطورية- فجاء الاجتياح التترى للمشرق العربى- بقيادة القائد المسيحى النسطورى «كتبغا» تمت غواية نصارى دمشق، فانحازوا إلى سلطة التتر، وانقلبوا على مواطنيهم المسلمين.. ويصف المقريزى (٧٦٦- ٨٤٥هـ- ١٣٦٥- ١٤٤١م)- وهو عمدة مؤرخى العصر- هذا الاستعلاء والاستفزاز النصرانى- فى دمشق- فيقول:

«واستطال النصارى بدمشق على المسلمين، وأحضروا فرمانًا من هولاكو بالاعتناء بأمرهم وإقامة دينهم، فتظاهروا بالخمر فى نهار رمضان، ورشوه على ثياب المسلمين فى الطرقات، وصبوه على أبواب المساجد، وألزموا أرباب الحوانيت بالقيام إذا مروا بالصليب عليهم، وأهانوا من امتنع من القيام

للصليب، وصاروا يمرون به فى الشوارع إلى كنيسة مريم، ويقفون به ويخطبون فى الثناء على دينهم، وقالوا جهراً: «ظهر الدين الصحيح، دين المسيح» وخربوا مساجد ومآذن كانت بجوار كنائسهم. فقلق المسلمون من ذلك، وشكوا أمرهم لنائب هولاكو -وهو كتبغا- فأهانهم وضرب بعضهم، وعظم قدر قسوس النصارى، ونزل إلى كنائسهم وأقام شعارهم»!![1].

وأمام عنف الخيانة، والاحتماء بالأجنبى المستعمر، جاء عنف الانتقام.. فبمجرد الانتصار الإسلامى على التتر فى «عين جالوت» (٦٥٨هـ- ١٢٦٠م)، وعندما وصل إلى أهل دمشق كتاب السلطان قطز (٦٥٨هـ- ١٢٦٠م) يبشرهم بهذا الانتصار «وبفتح الله له، وخذلانه التتر، سر الناس سروراً كثيراً، وبادروا إلى دور النصارى فنهبوها، وخربوا ما قدروا على تخريبه!»[2].

فالوقوع فى شراك الغواية الاستعمارية، والاحتماء بالغزاة، سبب أساسى من أسباب التوترات الطائفية فى تاريخ المجتمعات الإسلامية..

● ولقد تكرر هذا المشهد فى تاريخنا الوطنى عدة مرات.. ومنه ما صنعه بونابرت (١٧٦٩- ١٨٢١م) إبان الحملة الفرنسية على مصر (١٢١٣هـ- ١٧٩٨م).. فلقد أعلن بونابرت -وهو فى الطريق إلى بلادنا- عزمه على تجنيد عشرين ألفًا من أبناء الأقليات فى الشرق،

---

(١) المقريزى (كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك) جـ١ ق ٢ ص ٤٢٥، ٤٣٢ تحقيق: دكتور مصطفى زيادة. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.

(٢) المصدر السابق. جـ١ ق ٢ ص ٤٣٢.

ليتخذ منهم قبضة ضاربة، وقفازًا محليًا، وموطئ قدم لحملته الاستعمارية وحلمه الإمبراطوري.. ولقد نجح في إغواء قلة -سماها الجبرتي (١٦٧- ١٢٣٧هـ- ١٧٥٤- ١٨٢٢م) -مؤرخ العصر- «أراذل القبط»، خرجوا على كنيستهم الوطنية، وشعبهم المصري، وقادهم المعلم يعقوب حنا (١٧٤٥- ١٨٠١م) -الذي سماه الجبرتي «يعقوب اللعين»!!.. فاشتركوا -مع جيش فرنسا- في احتلال القرى، وحرقها ونهبها- وخاصة في الصعيد-.. وجعل لهم بونابرت نصف عضوية «ديوان المشورة».. والسلطة الفعلية في الجهاز المالي والإداري.. وبعبارة الجبرتي **فلقد فوض الجنرال كليبر (١٧٥٣- ١٨٠٠م) للجنرال يعقوب «أن يفعل بالمسلمين ما يشاء.. حتى تطاول النصارى -من القبط ونصارى الشوام- على المسلمين بالسب والضرب- ونالوا منهم أغراضهم، وأظهروا حقدهم، ولم يبقوا للصلح مكانًا!! وصرحوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين»**[1].

ورغم أن المسلمين قد رفضوا أخذ الأغلبية النصرانية الوطنية بجريرة هذه القلة الخائنة.. بل وصدرت المنشورات إلى مختلف أقاليم مصر تحذر من الانتقام، إلا أن هذه القلة الخائنة أبت إلا أن ترحل في ركاب جيش الحملة الفرنسية لتسعى لدى الحكومة الفرنسية، وأيضًا الإنجليزية، لتغريب مصر، وفصلها عن محيطها الإسلامي، وتراثها الحضاري

---

(١) (عجائب الآثار في التراجم والأخبار) جـ٥ ص ١٣٦ تحقيق: حسن محمد جوهر، عمر الدسوقي، السيد إبراهيم سالم. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥م.

الإسلامى، لتكون موالية للغرب، بدلا من الشرق الإسلامى.. ولتصبح شرائعها ونظمها فرنسية.. بل ولتكون أداة الاختراق الفرنسى لقلب أفريقيا، بواسطة الكنيسة المصرية، التى أرادوا توظيفها فى خدمة المشروع الاستعمارى، وإخراجها عن موقفها الوطنى التاريخى[1]!!

ومنذ ذلك التاريخ، تمايزت فى صفوف الأقليات -الدينية والقومية- المواقف والاتجاهات:

- فالأكثرية الساحقة تقف مع الأغلبية المسلمة فى خندق الوطنية المصرية والقومية العربية والحضارة الإسلامية..
- والقلة العميلة -أو المخدوعة- تراهن على الأجنبى- حماية وثقافة-.. فتجلب على غيرها هذه التوترات الطائفية التى تظهر وتختفى، وتشتد وتضعف بمقدار الغواية الاستعمارية لنفر من أبناء هذه الأقليات..

تلك هى قصة أمتنا وحضارتنا مع التوترات الطائفية، كما رصدها المفكرون والباحثون غير المسلمين.. وكما وردت وقائعها فى أمهات مصادر التاريخ، حتى مطلع العصر الحديث..

●●●

(١) دكتور أحمد حسين الصاوى (المعلم يعقوب بين الحقيقة والأسطورة) ص ١٢٣، ١٢٥، ١٢٩، ١٣٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٨٦م.